(٨)

خطبة الجمعة وأهميتها في الإسلام

تأليف

محمد بن عبد الله السبيل

إمام وخطيب المسجد الحرام

خطبة الجمعة وأهميتها في الإسلام[(١)]

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، محمد وآله وصحبه ، وبعد :

فلقد عني الإسلام بتبصير الناس ، وتذكيرهم بدينهم ، وبيان أصوله ومقاصده ، وشرح محاسنه ومزاياه ، وترسيخ ذلك في نفوس الناس ، وحثهم على الالتزام به ، والتقيد بأوامره ، ونواهيه على الدوام والاستمرار.

لذا شرع الإسلام مواعظ موسمية ، أوجب بعضها ، واستحب البعض الآخر منها ، وكان من أعظم هذه المناسبات الوعظية الدعوية التي شرعها الإسلام ، وأوجبها في كل أسبوع مرة ، إقامة صلاة الجمعة التي هي من أكبر فروض الإسلام ، ومن أعظم مجامع المسلمين ، وفيها من الفوائد العظيمة ، والمنافع الكثيرة للفرد المسلم ، وللمجتمع الإسلامي ما لا يمكن حصره ، أو يستطاع عده ، وإن من أعظم منافع صلاة الجمعة ما شرع الإسلام فيها من خطبتين هما شرط لصحتها ، وقد وضع الشارع لها أصولاً وضوابط ، متى ما التزم بها ، وعمل بمقتضاها تحققت منها المقاصد الشرعية التي أرادها الشارع من مشروعيتها ، وإن الإخلال أو التقصير في شيء من تلك الأصول والضوابط يضعف الهدف من مشروعيتها ، ويقلل الفائدة المأمولة منها .

(١) بحث قدمه في الدورة الثانية للملتقى العلمي لخطباء الجمعة المنعقد في مدينة مراكش بالمملكة المغربية في شهر شعبان عام ١٤١٣هـ .

هذا وإن الكلام عن خطبة الجمعة وأهميتها في الإسلام وعناية الشارع بها يقتضي تركيز الكلام عنها في أمرين رئيسيين هما : الخطيب ، والخطبة .

الأمر الأول : الخطيب :

وهو العنصر الأساسي في خطبة الجمعة ، فبقدر أهليته لهذه المسؤولية الدعوية الجليلة ، يتحقق الأثر الأكبر والنفع الأعظم منها .

لذا فقد أولى الإسلام خطيب الجمعة أهمية كبرى ، وعناية عظمى ، يظهر ذلك واضحًا في قيام النبي ﷺ بهذا الأمر بنفسه ، وعدم إسناده إلى غيره طول حياته عليه الصلاة والسلام ، وهكذا سار على نهجه ، وسلك هديه ، خلفاؤه الراشدون من بعده ، وكذا من بعدهم من خلفاء الدولة الإسلامية ، وأمرائها على البلدان ، فقد كانوا يتولون خطبة الجمعة بأنفسهم، كما كان يسند أمرها على مر العصور الإسلامية وفي مختلف البلدان والأمصار إلى أعيان العلماء ومشاهير الدعاة الذين اشتهروا بغزارة علمهم ، وسعة فكرهم .

ولكي تتحقق المقاصد الشرعية من خطبة الجمعة فإنه يجب أن يعنى باختيار الخطباء الأكفاء ، وتهيئتهم لهذا العمل الجليل الذي هو من أجل مقامات الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

ويجدر ألا يولى هذا الأمر إلا لأفضل الناس علمًا ، وأعمقهم فقهًا ، وأبعدهم نظرًا ، وأوسعهم فكرًا ممن يتصف بالحلم والأناة والحكمة

والرزانة ، والصلاح والاستقامة ، والأخلاق الكريمة ، والشمائل الحميدة ، ليكون قدوة لغيره ، وأسوة لأهل بلده ومجتمعه بأفعاله وأقواله ، فإن ذلك أحرى في انتفاع الناس بوعظه وتذكيره وقبولهم لنصحه وتوجيهه .

ومما ينبغي أن يتصف به الخطيب أيضًا أن يكون ذا قدرة جيدة على إلقاء الخطبة مع فصاحة اللسان وسلامة المنطق والبيان ، وقوة الصوت ، ورباطة الجأش، وغير ذلك من الصفات التي يحسن الاتصاف بها .

الأمر الثاني : الخطبة :

اهتم الشارع الحكيم بخطبة الجمعة اهتمامًا بالغًا ، واعتنى بها اعتناء كثيرًا ، ومن مظاهر ذلك ما يأتي :

١ – الحث على التبكير في الحضور إلى صلاة الجمعة ، والإنصات إلى الخطبة، والترغيب في ذلك ، وبيان ما فيه من الثواب الجزيل ، والأجر الكبير ، فمن الأدلة على ذلك قوله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الجمعة : ٩] ، والمراد بالذكر هنا : خطبة الجمعة .

وأما الأحاديث في ذلك فهي كثيرة منها : قوله عليه الصلاة والسلام: « من اغتسل ثم أتى الجمعة فصلى ما قدر له ، ثم أنصت حتى يفرغ الإمام من خطبته ، ثم يصلي معه ، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام » رواه مسلم في صحيحه .

٢ – وضع الحماية والحصانة لخطبة الجمعة ، حيث أوجب الشارع

الإنصات والإصغاء أثناء إلقائها ، ونهى عن الانشغال عنها ، أو التشويش على المستمعين لها.

وقد رتب الشارع على الاستهانة بهذه الحرمة ، وعدم رعاية هذه الحصانة ، ذهاب فضيلة الجمعة وثوابها عمن فعل ذلك عقوبة له وزجرًا ، وفي هذا يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد عند ذكر هديه ﷺ في صلاة الجمعة : « وكان يأمر الناس بالدنو منه ، ويأمرهم بالإنصات ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه : أنصت ، فقد لغا ، ويقول : « من لغا فلا جمعة له » وكان يقول عليه الصلاة والسلام : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارًا والذي يقول له : أنصت ، ليست له جمعة » رواه الإمام أحمد .

هذا وإن من أهم ما يجب التركيز عليه من أمور الخطبة ما يلي:

أولاً : زمن الخطبة ، وأسلوبها :

ينبغي أن يكون زمن الخطبة قصيرًا ، فإن خير الكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيمل ، كما قاله الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

أما من حيث الأسلوب فحري بالخطيب أن يكون أسلوبه في خطبته أسلوبًا عربيًا فصيحًا ، واضح الدلالة على المعنى المراد ، بعيدًا عن الإغراب في الكلام ، وتكرار المعاني ، والحشو في الألفاظ فيتخير من الألفاظ أجزلها ، ومن العبارات أسلسها ، بحيث لا يخفى على ذوي الأفهام العادية والمعرفة المحدودة ، المراد من كلامه ولا يستهجن العالم والمثقف عباراته وأسلوبه .

كما ينبغي للخطيب أن يعنى برفع صوته أثناء الخطبة ليسمع الحاضرين ، وأن يلقيها بحماس واهتمام ، فإن لحسن الإلقاء أثره الكبير في جذب انتباه المستمعين وإصغائهم .

وقد كان من هديه ﷺ في خطبته أنه إذا خطب احمرت عيناه ، واشتد غضبه ، وعلا صوته .

هذا وإن الإيجاز في الخطبة والاختصار فيها أحرى بإدراك السامعين لها ، وتأثرهم بما يلقى فيها من نصائح وعظات وتوجيهات وإرشادات ، بخلاف الإطالة فإنها مدعاة للسآمة والملل ، مهما بلغ الخطيب من الفصاحة والبلاغة ، وحسن البيان ، ومهما كان الموضوع من الأهمية بمكان ، مما قد يفوت المقصود ، أو يقلل من حصول الهدف المنشود .

ولقد كان هديه عليه الصلاة والسلام في خطبة الجمعة الاختصار وعدم الإطالة ، كما في خطبه المروية عنه ﷺ وكما جاء وصفها في بعض الأحاديث بأنها كلمات يسيرات ، كما في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : أنه كان لا يطيل الموعظة يوم الجمعة وإنما هي كلمات يسيرات ، وقد أكد عليه الصلاة والسلام هذا الفعل بالأمر بالاختصار في الخطبة، وعدم الإطالة فيها كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه » . وجاء في بعض الروايات بعد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة ، وإن من البيان لسحرًا » ، وزاد الطبراني

وغيره : « وإنه سيأتي بعدكم قوم يطيلون الخطبة ويقصرون الصلاة» وروى الطبراني في معجمه الكبير أن النبي ﷺ كان إذا بعث أميرًا قال له : « أقصر الخطبة وأقلل الكلام فإن من الكلام لسحرًا » .

قال العلامة الشوكاني في نيل الأوطار : « وإنما كان إقصار الخطبة علامة من فقه الرجل ؛ لأن الفقيه هو المطلع على جوامع الألفاظ ، فيتمكن بذلك من التعبير باللفظ المختصر على المعاني الكثيرة » .

ثانيًا : موضوع الخطبة :

موضوع الخطبة هو المقصود الأعظم ، والهدف الأسمى من مشروعيتها فيجب أن يعنى به ، وأن يهتم بشأنه ، فإن البعض من الخطباء قصروا في الاتجاه بمواضيع الخطب عن هدي الإسلام الذي شرعه ، والمنهج الذي رسمه ، مما حصل بسببه ضعف تأثير خطب الجمعة على السامعين ، وأصبح حضور البعض للخطبة وسماعهم لها إنما هو من قبيل العادات التي نشأوا عليها ، لا من قبيل العبادات التي يجب الاعتناء بها .

لذا فإن على الخطيب استكمال شروط الخطبة التي لا تصح إلا بها ، والتي بينها الفقهاء ، وأوضحوها بالتفصيل في مواضعها من كتب الفقه .

كما ينبغي للخطيب أن تكون مواضيع خطبه في تقرير أصول الإيمان بالله تعالى وتوحيده وتعظيمه في النفوس ، وتذكير الناس بالمبدأ والمعاد والجنة والنار ، وبيان ما أعد الله تعالى للمتقين من النعيم المقيم، وما توعد به العصاة والكافرين من العذاب الأليم، وشرح محاسن الإسلام، وبيان

مزاياه، وإيضاح مقاصد الشرع وحكمه، وحث الناس على الالتزام بالأوامر الشرعية ، واجتناب النواهي والمحرمات ، وترغيبهم في فضائل الأعمال التي حث عليها الشرع وندب إلى فعلها،مع الاهتمام بقضايا المجتمع على اختلاف أنواعها، وبيان موقف الإسلام منها ، مدعمًا أقواله بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة ، وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من أئمة الإسلام وعلماء المسلمين وأن يكون حذرًا من الاستدلال بأحاديث ضعيفة ، ومبتعدًا عن إيراد القصص والحكايات ، وإنشاد الأشعار ، فترك هذه الأمور في الخطبة أولى ، والبعد عنها أجدر ؛ لأن إيراد ذلك لم يكن من هدي السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وبالجملة فإن على الخطيب أن يراعي في اختيار موضوع الخطبة اختلاف الزمان والمكان والمناسبة ، فيختار لكل جمعة من المواضيع ما يناسب ذلك .

ولقد بين عدد من العلماء رحمهم الله ما ينبغي أن تشتمل عليه الخطب من المواضيع ، وما يحسن أن تكون عليه من الأساليب ، فمن ذلك ما قاله العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد في معرض بيانه لهدي النبي ﷺ في ذلك ، حيث قال رحمه الله :

« ومن تأمل خطبه ﷺ وخطب أصحابه وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد ، وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله ، وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه وأيامه التي تخوفهم

من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه ، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم ثم طال العهد وخفي نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر رسومًا بما زينوها به ، فجعلوا الرسوم والأوضاع سننًا لا ينبغي الإخلال بها ، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصعوا الخطب بالتسجيع والفقر، وعلم البيان، فنقص بل عدم حظ القلوب منها، وفات المقصود بها » اهـ.

هذا وإن من المواضيع التي ينبغي على الخطيب اجتنابها والبعد عن التحدث عنها في الخطبة – مما هو واقع بعض خطباء هذا العصر– التعرض في الخطبة لقضايا خاصة ، أو نقد لتصرفات شخصية فردية ، أو الكلام في بعض المسائل الخلافية ، التي قد يؤدي الكلام عنها نزاعًا ، أو تحدث خلافًا وشقاقًا ، أو الكلام عن منكرات خفية ، أو التحدث عن قضايا وأحداث لا تهم المخاطبين، بل قد لا يعلم أكثرهم عنها شيئًا ؛ لكونها في مجتمعات أخرى غير مجتمعهم .

وأسوأ من ذلك أن يعتمد موضوع الخطبة على ما قد تنشره بعض المصادر غير الموثوقة كالاعتماد على ما تذكره بعض الصحف والمجلات ، خصوصًا الأجنبية من آراء وأفكار .

وإن التحدث عن تلك القضايا المشار إليها قد يكون له مردوده السيء على المخاطبين ؛ لأنه ربما كان أذهان أكثرهم خالية عنه البتة ، فحينما يتحدث عنها خطيب الجمعة قد يحمل البعض على البحث عنها ، والتعرف

عليها ، ويكون عليهم من الأضرار والمفاسد في ذلك أعظم من ضرر السكوت عن بيانها ، والتحذير منها إن كان فيها شيء من الضرر .

وختامًا نسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدي الخطباء والدعاة إلى ما فيه عز الإسلام والمسلمين ، وأن يوفق جميع المسلمين للتمسك بدينهم والاهتداء بهدي نبيهم إنه تعالى سميع مجيب ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

الفهرس